ثم...ماذا بعد؟!

18-12-2003

على ماذا نراهن في عالم اليوم؟ وماذا أعددنا لخوض الحرب النفسية والصناعة الدعائية الفجة التي ترتكز عليها الولايات المتحدة لبسط نفوذها، ناهيك عن الدبلوماسية الثقافية التي يُخطط لها لأداء دورها في صياغة الأفكار والعقول، والتي عادت إلى الواجهة كجزء محوري من أدوات الحركة الأمريكية؟
إننا نتحدث عن مخاطر وتهديدات تجتاح حصوننا وتخترق جهاز مناعتنا.

بقلم خالد حسن

على ماذا نراهن في عالم اليوم؟ وماذا أعددنا لخوض الحرب النفسية والصناعة الدعائية الفجة التي ترتكز عليها الولايات المتحدة لبسط نفوذها، ناهيك عن الدبلوماسية الثقافية التي يُخطط لها لأداء دورها في صياغة الأفكار والعقول، والتي عادت إلى الواجهة كجزء محوري من أدوات الحركة الأمريكية؟
إننا نتحدث عن مخاطر وتهديدات تجتاح حصوننا وتخترق جهاز مناعتنا.
يواجهنا اليوم سؤال محرج ومصيري في آن واحد، كيف نواجه هذا العتو في الأرض؟ نعم للفكرة وصناعة الرأي، والأصل فيها أن تسبق أي خطة أو حركة، لكن أين المنابر التي تؤسس للموقف وتصيغ الفكرة؟. ولا ضير أن تظهر أكثر من مؤسسة فكرية وبحثية وكل يشغل منطقة هامة وحرجة ومصيرية في النهوض بالأمة وصياغة مستقبلها. لكن يبقى السؤال مطروحا: أين هي؟، مثل هذه المؤسسات تضع الخطة الشاملة والمشاريع الإصلاحية وترسم الدليل العملي لحراك اليوم والغد. أمامنا جبهات غلاظ شداد، بدءا بالنفس والعقل، إما أن نخوضها، وندفع قدر خداع العقول بقدر تنويرها وتوجيهها، أو نرضى بموقف المتلقي. بإمكاننا أن نجمع عقولا ونوابغ ورواحل والأمة لا تخلو منهم برهة من الزمان، لكن أين المؤسسة المبادرة،؟ أين الذي يباديء ويتقن فن التجميع الهادىء الموزون، وأين الممول الداعم؟.
هل يعقل أنه إلى الآن لم تظهر أي مؤسسة فكرية لا في الغرب ولا في ديار المسلمين؟!. إن مشاريع المقاومة والصروح الدعوية والمنابر الإعلامية وغيرها من صنوف التدافع لا تقوى على الصمود، وأكثر من هذا على التطوير إلا أن تسندها مؤسسات فكرية. إن صورة صدام المحجوز قبل عرضها على شاشات الكاميرا والتلفاز، مرت على مخابر للتحليل وصناعة الصورة وخبراء لتوظيفها لخدمة أغراض نفسية، سياسية وعسكرية...وقبل الخبراء هناك المستشارون ومكاتب الاستشارات ومجالس الخبراء، وقبل هذا هناك المؤسسة السياسية والعسكرية، وقبلها هناك التيارات والتوجهات الثقافية والفكرية. إن أعمالنا إلى الآن لم تتجاوز مستوى القول وصناعة الكلام، وليت هذا كان ضمن خطة مدروسة ومنهجية منضبطة، بل أكثرنا أصبح رأسا في قومه أو طلابه أو جماعته أو عصبيته أو محبيه أو مناصريه، له موقع وسيل من الكتابات والآراء، ومنا من آثر الانكفاء والانطواء، ومنا من تشعبت به الهموم، ومنا من عاكسته الظروف والأوضاع وهكذا. نعم لا نحقر من

الأعمال شيئا، وكل ميسر لما خلق له، ولا يغادر أحد موقعه ولا منبره، ولكن نحتاج إلى مستوى أعمق في السير والحراك، خاصة وأن السهام موجهة إلى كيان الإنسان ككل، وتحديدا عقله وفكره. وإذا راهنت الحركة الأمريكية على التقنية والتكنلوجيا لغزو العقول وبسط الهيمنة، فلنراهن على الإنسان ابتداء، فهو محور الصراع ووقوده. ولنستثمر في الموارد البشرية.
في أمريكا اليوم، يجري الحديث عن دور العامل النفسي والصناعة الدعائية وخداع الصورة في هزيمة الأعداء، ويعتمدون على جيش من الخبراء في العلاقات العامة والإعلام وعلماء النفس ومستشارين وغيرهم.
وعلى مستوى آخر، يحتدم النقاش بشأن رد الاعتبار للعامل الثقافي لكسب ود العرب والمسلمين في إثر الصدمات النفسية التي يتعرضون لها، وعدم الرهان الكلي على اللغة العسكرية في التعامل مع العالم الإسلامي، وهذا لأن تأثيرها يفوق التأثير العسكري، وللظفر بالولاء الطوعي غير المكلف ولا المستنزف. ويستند هؤلاء لأكوام من التجارب التاريخية والسياسية، ففي وقت مبكر من الحرب الباردة، كانت الجهود الأمريكية في مجال الدبلوماسية الثقافية تمول مباشرة من قبل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية الـ (سي آي إيه) بالإضافة إلى قسم العلاقات الثقافية في وزارة الخارجية. وقد أدرك صانعو السياسة الأمريكيون الصلة بين الانخراط مع الجماهير الأجنبية والانتصار على "الأعداء" الأيديولوجيين، واعتبروا الدبلوماسية الثقافية حيوية بالنسبة للأمن القومي الأمريكي، وإن مثل هذا المنظور لم يعد له وجود اليوم أو على الأقل تراجع تأثيره ودوره، في الوقت الذي يعتقد فيه العديد من صناع السياسات بأن القوة العسكرية قد حققت الاستجابة الكافية "للإرهاب"، إذ اعتبر الكثيرون في واشنطن أن انهيار الاتحاد السوفييتي يعد فرصة لتفكيك شبكات التدخل الخارجي الأمريكية.
وخلال سنوات التسعينيات، تحدت حقيقة وجود كونغرس انعزالي وفهمه للعالم، الذي لا يتناسب مع "الحقائق الجديدة" للقوة الأمريكية، الفكرة القائلة بأنه يتعين على الولايات المتحدة نشر المعلومات من خلال التبادل التعليمي والثقافي. فقد تم تخفيض أعداد العاملين في سلك الخارجية الأمريكية مما جعل العديد من السفارات الأمريكية تعمل بالحد الأدنى من طاقم الدبلوماسيين، وقامت المراكز الثقافية الأمريكية، التي تعتبر أدوات "ناقذة وفعالة" ذات امتداد محلي، بإغلاق أبوابها. وكان الشعور العام في واشنطن يتمثل في أن الولايات المتحدة يمكنها أن تتخلى عن التفاعل الشخصي في عصر الاتصال الالكتروني الجماهيري، ولهذا اتجه التفكير نحو القول أن التقنية كفيلة بفعل كل شيء. وتساءل روس بيرو قائلا: "ما حاجتنا للدبلوماسيين، كل ما عليك فعله هو أن ترسل رسالة بالفاكس". وعليه، أصبحت المراكز الثقافية الأمريكية من بين الضحايا لعملية تقليص موازنة التسعينيات من القرن الماضي، عندما تم تقليص حجمها ومستواها إلى وحدات لمصادر المعلومات، أي أماكن يلتقي فيها جمهور محدد وضيق، ولم يعد الطلاب يأتون لإجراء البحوث وكتابتها، وفقد الصحفيون –حسب أنصار الدبلوماسية الثقافية- منبرا محليا مؤثرا يتباحثون فيه حول القضايا الخارجية والاقتصادية مع خبراء ودبلوماسيين أمريكيين. ويرى عدد من النقاد والمراقبين أن الموارد المخصصة للدبلوماسية العامة والثقافية أصبحت غير كافية، ففي عهد إدارة ريغان، تجاوزت ميزانية وكالة الإعلام الأمريكية

المليار دولار في السنة، أما اليوم، فان الميزانية الإجمالية للدبلوماسية العامة تبلغ أقل من ثلاثة أرباع المليار دولار. ويوصي هؤلاء بأنه "يتعين على إدارة بوش أن تدرك أن الفوز بالولاء الطوعي من جانب الأجانب للمشروع الأمريكي سيكون أهم جائزة في حربها التي تشنها على التشدد"، كإشارة لعامل العلاقات الشخصية وكسب الود عبر شبكة من العلاقات العامة.
أنظر إلى هؤلاء، كيف أنه في كل مرحلة تبرز الحاجة إلى سلاح جديد، أو يُنفض الغبار عن أداة قديمة لكنها فعالة، وتُفتح جبهة صراع مؤثرة، ويحتدم النقاش، وكل مدرسة أو توجه يضغط بمراكزه وأبحاثه ومؤسساته وقبل هذا بأفكاره ليتم إقرارها وتُصاغ على شكل سياسات، ورغم طغيان مدرسة القوة والتكنلوجيا العسكرية طبقا لنظرية "الصدمة والترويع"، إلا أن الحاجة ماسة (حسب هؤلاء المراقبين والنقاد) إلى الاختراق الثقافي وفقا لفكرة "حرب الأفكار"، ومادام الهدف هو سلب الإنسان المسلم إرادته وقدرته وإخضاعه، فإن "الحرب النفسية" تشكل مدخلا أساسيا لمختلف أنواع المعارك والحروب.
إن تنوع جبهات التدافع يفرض تنوعا في التخصصات وشعب المعرفة، ومؤسسات توجه وتؤثر وتخرج الجيل القيادي، ومراكز تصدر التقارير الاستراتيجية وتكشف خطط الهيمنة والمشاريع المشبوهة، نعم هناك عدد من مراكز الدراسات والأبحاث أسست أو هي في طور التأسيس، وهذا بحد ذاته مؤشر محفز، لكن لم هذا الشتات؟ وأين هي الفعالية؟ وهل هناك مراعاة لمقاييس التخصص والتميز والمهنية؟، وليس هذا من قبيل التعجيز وإشاعة أجواء التشاؤم، ولكنَ العبرة ليست في مظاهر التأسيس والبروز فقط، وإنما الذي تبين بعد مخاض عسير وتجارب مريرة، أن الأمر تجاوز مجرد التحرك والسعي، إلى تحري عوامل التأثير والفعالية. إذ لا مكان للهزيل المترنح، ولا للشتات المستنزف، ولا لرجل الملحمة الملهم الموهوب، ولا لأقبية ودهاليز التنظيمات، ولا لاستئثار الشيخ، ولا للفوضى والتخبط وسوء الإدارة والتسيير.